٤ـ بعض سنن الله تعالى في الميدان الاقتصادي وآثارها في الحياة

١/٤ تأصيل المسألة:

بعد هذه الجولة القصيرة حول السنن الإلهية، مفهومها وخصائصها وأساليب الهداية إليها والميادين التي تمارس السنن عملها فيها، والهدف من بناء الحياة على السنن، ننتقل من التعميم إلى التخصيص، من الحديث العام عن السنن الإلهية إلى الحديث الخاص عنها من ميدان محدد هو الميدان الاقتصادي.

إن القرآن الكريم قد علمنا أن كل ما يقع في الأرض من أحداث وما يصيب الإنسان من خير وما يحل به من ضر، لا يقع صدفة، أو يحدث اعتباطاً، وإنما يقع وفق ناموس عام ونظام يحكم الحياة ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾

[الحديد:٢٢]

وبناء عليه (وعلى صعيد الحياة الاقتصادية) فإن كل ما وجد ويوجد من الموارد وطريقة توزعها على جنبات الأرض، وزيادتها ووفرتها في منطقة ونقصها وقلتها في منطقة أخرى، والصفات التي توجد عليها هذه الموارد في كل صعيد، وكل ما يصيب المجتمع من تقدم وتخلف، وما يتحقق له من غنى وفقر، وما يناله من رفاهة الحياة وضنك المعيشة، إنما يتم وفق ذلك الناموس ويحكمه ذلك النظام ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾[الطلاق:٣] ، هذا الناموس وذلك النظام الذي يحكم الحياة الاقتصادية هو سنن الله تعالى في الميدان الاقتصادي.

وإذ نحن في بداية إحتكاكنا بالدراسة الاقتصادية، فإنه من مقدمات هذه الدراسة، أن نقف على الأرضية الصلبة لها، ممثلة في الوقوف على سنن الله تعالى التي تتحكم في هذا الميدان، ويخضع لها الإنسان. علينا أن نتعرف على أهم هذه السنن، وشروط انطباقها، وضوابط حكمها للحياة الاقتصادية، وما هو أثر السلوك الإنساني فيها، وما الذي يجرى منها رغم أنف الإنسان، وما الذي يتخذ من سلوك الإنسان مادة له، هل في مقدور الإنسان أن يعاند هذه السنن ويخرج عليها ولو مؤقتا؟ أم أن ذلك غير مقدور له عليها؟ وهل تحكم هذه السنن الجانب المادي من الإنتاج فقط، أم أنها تحكم أيضا الجانب الاجتماعي منه، والذي يتمثل في علاقة الإنسان بالإنتاج، وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان الناشئة عن التشارك في عمليات الإنتاج؟

بمعنى هل هناك سنن تحكم توزيع العائد بحيث إذا ساد العدل في التوزيع تحققت نتائج معينة، وإذا ساد سوء التوزيع تحققت نتائج أخرى؟

ثم في ميدان الاستهلاك، هل في هذا الميدان سنن لله تحكمه فيكون خروج الإنسان عليها مخلا بالعلاقة الصحيحة التي يجب أن تربط بين موارد الله تعالى واستخدامات الإنسان لها، فتترتب نتائج معينة على إتباع الإنسان للسنن كما ترتب نتائج مخالفة الإنسان لسنن الله تعالى في ميدان الاستهلاك.

وفى ميدان الحركة الحضارية وبناء العمران البشرى، وتحقيق النهوض الاقتصادي والشهود الحضاري، هل هدانا الله تعالى إلى السنن التي نملك باستخدامها أن نحقق النهوض إذا كبونا، وأن نحقق التقدم إذا تخلفنا، وأن ننتصر إذا هزمنا، ونمتلك القوة إذا ضعفنا، وان نعز إذا ذللنا؟

إننا كي نؤصل نظرية اقتصادية إسلامية، ونقيم بناء نظرياً يجيب على شتى التساؤلات المثارة في الميدان الاقتصادي علينا أن ننطلق من البحث عن سنن الله تعالى في الميدان الاقتصادي، عاملين على استنباطها ثم صياغتها صياغة دقيقة، ووضعها في مكانها الصحيح من البناء النظري الاقتصادي الإسلامي.

وسنجد أن سنن الله تعالى في الميدان الاقتصادي يُتوصل إليها من طريقتين، فالسنن الحاكمة للجانب المادي من الإنتاج، إنما نصل إليها عن طريق ملاحظة سلوك الظواهر المادية، والكشف عن العلاقات التي تربط بين ذلك السلوك ونتائجه، حتى تصل إلى القوانين التي تحكمها، والتي عليها تنقاد غلتها، وتعطي الإنسان خيرها، أما السنن الحاكمة للجانب الاجتماعي من الإنتاج فإن الوصول إليها يكون بالبحث في كتاب الله تعالى وسنة رسوله الكريم - للاهتداء إلى السنن التي تحكم علاقة السلوك الإنساني بالعمليات الاقتصادية، إنتاجاً وتوزيعاً واستهلاكاً. وتوضح متى يقود هذا السلوك إلى فلاح الإنسان، ومتى يقوده إلى التردي. وبتجميع المحصلة النهائية للسنن الحاكمة في المجالين، وسلكها في بناء نظري متماسك، نحصل على صورة للنظرية الاقتصادية الإسلامية. ثم تأتي الدراسة الاقتصادية لتغرس في عقول المنتفين لها أن من مهام الإنسان المسلم الأساسية العمل على اكتشاف السنن الإلهية، ثم استخدامها للوصول إلى الأوضاع التي يرغب في الوصول إليها.

إن على علم الاقتصاد الإسلامي (إلى جوار مهامه الأخرى) أن يقدم السنن المكتشفة في المجال الاقتصادي إلى الممارسين لمختلف المهام في المجتمع، كي تستطيع بها حياتهم، وتترشد بها خطواتهم. ثم إن عليه أن يستمر في البحث

والتنقيب من أجل اكتشاف السنن التي لم يكشف عنها، حتى تسد الثغرات التي لم تزل قائمة في شبكة التعرف على السنن الإلهية في المجال الاقتصادي، وكلما تقدم خطوة في هذا الطريق، كلما تمكن من امتلاك نظرية أكثر دقة وتمكن الإنسان من الاستفادة مما سخر له في كون الله تعالى، فاخرج عملية التسخير من القوة إلى علم الفعل والعمل.

وفي هذه العجالة لن نتعرض للسنن الإلهية التي تحكم الجانب المادي من الميدان الاقتصادي، وسنكتفي بعرض السنن الإلهية التي تحكم السلوك البشرى في الميدان الاقتصادي، تلك السنن التي سنستخلصها مباشرة من كتاب الله تعالى ومن سنة رسوله -، وذلك كنماذج للسنن الإلهية التي تحكم هذا الميدان في مختلف فروعه. سنستعرض سنة الله تعالى:

١) في الحصول على الدخل (الرزق) على المستوى الفردي.

٢) سنة الله تعالى في تعظيم الإنتاج وزيادة الرخاء على المستوى العام (المجتمعي) (سنة الله في الإنتاج).

٣) ثم نعرض سنة الله تعالى في استخدام الدخل في إشباع الحاجات على المستوى العام (المجتمعي) أيضا (سنة الله في الاستهلاك).

٤) ثم سنة الله تعالى التي تحكم علاقات التوزيع المترتبة على اشتراك أفراد المجتمع في الاستفادة من الموارد المملوكة للمجتمع (سنة الله في التوزيع).

عسى أن يكون عرض هذه السنن داعياً إلى أن تنفعل بها جماهير أمتنا، وتستجيب لها بعد التعرف عليها، إذ لا قيمة لاكتشاف وعرض السنن إلا في الانفعال بها وتمثيلها في الحياة. واستخدامها في تحقيق الحياة الطيبة للمجتمع والبعد به عن التردي في هاوية التخلف في شتى ميادين الحياة.